

في عيد الميلاد ننسى الله الميتروبوليت نيكولا مطران ميسوغيا نقلتها إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

إننا في فترة التقدم لميلاد المسيح، إنه وقت الصوم والاستعداد للعيد العظيم. في العادة عيد ميلاد المسيح هو يوم خاص، زمان خاص من السنة، لكننا فيه ننسى الله. أو، ومن الأفضل أن نقول، إننا نعيش عيد الميلاد تجارياً: الشوارع المضاءة، الأنوار الخداعة، الأشجار المزيفة، الحلويات التقليدية، تبادل الهدايا، والتمتع بأيام الإجازة والأجر الإضافي... ثم ينتهي عيد الميلاد بمعدة ممتلئة وقلب فارغ ليس فيه المسيح. كل هذا تقريباً لا علاقة له بالحقيقة ومثير للخيبة بشكل عظيم؛ لقد أصبح العيد مجرد حافظ إذ قد سقط بالروح التجارية. قد نجد بعض المبررات لبعض الذين يستغلون عيد الميلاد محاولين كسب قوتهم اليومي، لكن حاجتهم هذه تدمر للعيد معناه الرائع وعمقه. غواية عيد الميلاد "التجاري" هي الخداع الأول. ولكن هناك ما هو أكثر مكرراً: إنه خداع عيد الميلاد "الاجتماعي". نحن ننظر إلى عيد الميلاد على أنه "موسم المحبة والعطلة العائلية". نحاول جعله عيداً بأن نلتقي جميعاً ونترع بالمال لخدمات اجتماعية، أو نجمع ونوزع علماً للفقراء تحتوي أرزاً ومعكرونة وبطاطس وزجاجة زيت ودجاج. كل هذا جيد والكنيسة أيضاً ترحب به، وعلينا نحن أيضاً أن نعمله. لكن الأعمال الصالحة قبل عيد الميلاد لا تتساوى مع عيد الميلاد نفسه. يمكننا القيام ببعض الأعمال الخيرية، وشراء بعض الأشياء من بازار عيد الميلاد الخيري، ورمي بعض المال في السلّة، وقد نخرج ونساعد في توزيع الهدايا في الأبرشية على العائلات الفقيرة. ولكن، في نفس الوقت، هذا لا يقودنا إلى أن نخبر الميلاد في حياتنا.

إذاً ما هو عيد الميلاد؟ كيف ينبغي أن نحتفي به؟ ربما نحتاج إلى القيام بشيء جوهري أكثر هذا العام، وسيوفر للبعض منا - على الأرجح لي - فرصة أخيرة.
ما هو معنى عيد الميلاد؟

"عيد الميلاد" كمفهوم يرتبط في أذهاننا، كقاعدة عامة، بوفرة من النعم الممكنة كتبادل الهدايا والزينة والسفر وغيره... تؤكّد هذه المفاهيم الخطأ المتشكّل فينا فقط. ومع ذلك، من ناحية أخرى، هي تعطينا سبباً لبعض التغيير. دعونا نحاول مقايضة الوفرة - على الأقل هذا العام - بالبساطة، وعيش عيد الميلاد القادم بهذه البساطة. ليس في فقر، على مثال المسيح، لكن بدون إسراف. فلتكن مائدتنا ملأى بما يكفي لتلبية احتياجاتنا، دون إفراط في الأطعمة. وبدلاً من أن نقدم الهدايا للشّعب ونحن منهم، فلنحاول عملاً بعض الرحمة في نفوسنا ونحرم ذواتنا من شيء من أجل جارنا. إن لم يكن لدينا مال، فلنمنح القليل من وقتنا للذين هم في المعاناة، وقليلاً من الصبر للشخص المستوحد صاحب الشخصية الصعبة؛ لنعمل من أجل الذين يحتاجون عملاً، لنزّر المستشفى مثلاً. هذه ستكون أفضل هدية للمسيح. بدلاً من تزيين ما حولنا، فلنزيّن نفوسنا. من المؤسف أن نزيّن منازلنا بالأشجار والأزهار، فيما قلوبنا مغمورة بأنسجة العنكبوت. وما أجمل أن يزيّن القلب، فيما زينة البيت احتفالية ولكن متواضعة!

بدلاً من الرحلات الطويلة، دعونا نقوم برحلة واحدة فقط: رحلة المجوس والرعاة. لنذهب الآن إلى بيت لحم، ونرى ما يحدث، وما أعلنه لنا الرب (لوقا ١٥: ٢). لفهم ماهية بيت لحم، سنحتاج إلى القليل من الهدوء. هل هذا حدّث وقع ذات مرة في إحدى القرى الفلسطينية؟ أم أنه حالة أنا قادر على إدراكها أيضاً في التواضع مثل المجوس؟ هل يقترب فهم ميلاد المسيح قليلاً؟ ماذا يخبرنا؟ كيف يولد خلاصنا في بساطة الكهف وتواضع القمط؟ كيف ينضح الله محبته ويلبس نفسه في الطبيعة البشرية؟ كيف ينزل الله ويهبنا أعظم إمكانية لتكون مثله؟

صوم الميلاد هو وقت مبارك ينكشف أمامنا كل مرة. إنه ينكشف كفرصة فريدة لكل واحد منا. هذه الأربعين يومًا من زمن المجيء تدگرنا باستمرار بهذا وبكل حياتنا. علينا فقط أن نفتح أعيننا وأذاننا ونتلقى الأخبار الروحية، حتى نتمكن من أن نجد أنفسنا في بيت لحم الأصبيلة، ونبتهج بالميلاد بكل كياننا. عندئذ ستؤكد مغارة الميلاد القادمة أن "الله معنا"، وليس فقط معنا بل فينا أيضًا: ملكوت الله بداخلكم (لوقا ١٧:٢١).

أتمنى أن يمنحنا الله جميعًا دون استثناء في نهاية هذه الأربعين يومًا أن نكون مستحقين لرؤية المسيح، ليس فقط المولود في المذود في بيت لحم، بل الأهم من ذلك مستلقيا في مذود أرواحنا.